مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: صـــوت الامـــة
التاريخ : ٢٠٠٣/٦/٢٩

أنا والسادات وأمريكا

التقيت الرئيس أنور السادات لأول مرة في عام ١٩٦٦، أيام كنت طالبا في الدراسات العليا ورئيسا لمنظمة الطلبة العرب بالولايات المتحدة وكندا، وكان هو رئيسا لمجلس الأمة المصري «مجلس الشعب الآن»، وجاء لزيارة أمريكا بدعوة من الكونجرس، الذي أعد له برنامجا حافلا للتجول في عدة مدن رئيسية، إلى جانب واشنطن. وطلب الرئيس السادات أن يجتمع بالطلبة العرب في هذه المدن، وكرئيس لمنظمة الطلبة العرب، فقد حضرت بعض هذه اللقاءات، وكانت رحلة اصطحابه من الفندق إلى مكان الاجتماع هي أول فرصة للاقتراب من الرجل وجها لوجه وللحديث المنفرد معه.

وحين أعود إلى ما سجلته من ذكريات حول هذا اللقاء الأول أجد انطباعين بارزين، الانطباع الأول هو بشاشة الرجل ودفئه وروحه المرحة، التي يشعر المرء معها بالألفة وعدم الكلفة، وكان ذلك انطباعا إيجابيا للغاية. كما لاحظت وقتها أنه متأنق للغاية، وتفوح منه روائح العطر الباريسي الرجالي. واستغربت ذلك وقتها لاعتقادي الساذج أن «الثوار» لا يهتمون عادة بمظهرهم كل هذا الاهتمام، وهو أحد ثوار يوليو ١٩٥٢.

أما الانطباع الثاني فكان الانبهار الواضح للرجل بالولايات المتحدة وبكل ما هو أمريكي. وقد أفزعني ذلك للغاية. فقد كان مر على بدء زيارته عدة أيام، بينما كان قد مر على إقامتي هناك عدة سنوات. وكان عقد الستينيات في الولايات المتحدة هو سنوات الغليان والاحتجاج بين الشباب الأمريكي على سياسات أمريكا الرسمية الداخلية والخارجية، وكنا نحن الطلبة العرب، كجزء من الحياة الجامعية الأمريكية في ذلك الوقت، متأثرين بثورة الشباب الأمريكي على حكومته. ناهيك عن أسبابنا

العربية الخاصة للاحتجاج على السياسات الأمريكية نحو مصر والوطن العربى والعالم الثالث عموما.. هذا فضلا عن أنه بمرور السنوات على إقامة الوافد الجديد إلى الولايات المتحدة، فإن انبهاره بذلك البلد يتلاشى تدريجيا، ويحل محله تقييم متوازن لمزايا وعيوب المجتمع الأمريكى.

لذلك فقد كان معظم الحديث فى هذا اللقاء الأول مع الرئيس أنور السادات هو بمثابة سجال تصحيحى.. فكلما أبدى إعجابه الشديد بجانب من جوانب المجتمع الأمريكى، رددت عليه بإبراز أحد الجوانب السلبية عن «أمريكا الأخرى»، العنصرية، والأربعين مليونا (وقتها) الذين يعيشون تحت خط الفقر وثقافة الحرب التى تغذيها المؤسسة العسكرية الصناعية الأمريكية، والمادية المفرطة، والسباق الاستهلاكى المحموم.. وما إلى ذلك.

وكان الرئيس السادات يهز رأسه بعد كل فقرة نقد. أو يقول: «معك حق»! ثم سرعان ما يبدى اعجابه بشىء آخر، فأعود أنا كتلميذ مجتهد وبجدية بالغة لتفنيد ما كان الرجل معجبا به. ولم أدرك وقتها ما إذا كان الرجل يستمع حقيقة لما كانت أقول. أم أنه كان يجاملنى أو يسايرنى بهز رأسه، أو بكلمتى «معك حق».

وسرعان ما نسيت تأثير هذا اللقاء فى زحمة الأحداث المتلاحقة فى أمريكا والشرق الأوسط. خاصة أن أنور السادات لم يكن فى ذلك الوقت (١٩٦٦) شخصية مركزية فى صناعة القرار المصرى، رغم رئاسته للمجلس النيابى، وعضويته فى مجلس قيادة ثورة يوليو ١٩٥٢. ولم أتذكر وقائع هذا اللقاء الأول مرة أخرى إلا بعدالرحيل المفاجئ للرئيس جمال عبدالناصر فى أواخر سبتمبر ١٩٧٠ . ومانقلته وكالات الانباء لنا فى الولايات المتحدة بتولى أنور السادات رئاسة الجمهورية مؤقتا. ثم ترشيحه بواسطة مجلس الأمن ليكون رئيسا لمصر.. وأذكر وقتها أن زوجتى وجدتنى واجما ومستغرقا فى التفكير بعد سماع النبأ.. ولما استفسرت عن سبب الوجوم. تمتمت ببضع كلمات. وكأننى أتحدث إلى نفسى. . مفادها «أنه إذا كان هناك من سيجعل مصر تنحاز الي أمريكا مائة وثمانين درجة فإنه سيكون هذا الرجل... وأذكر أن زوجتى استنكرت وقتها تلك النبوءة، بعبارة مفادها «كيف تقول ذلك عن رجل

تؤكد نفس وكالات الأنباء أنه رفيق نضال عبد الناصر، وأحد الثوار الأوائل؟. ولم أرغب وقتها أن أقص عليها انطباعات لقائى الأول. منذ أربع سنوات، مع أنور السادات، ومدى ما أحسست فيه من انبهار الرجل بالولايات المتحدة تمنيت وقتها ألا تصدق نبوءتى وأن يكون استنكار زوجتى فى محله.

بعد خمسة عشر عاما، وبالتحديد فى آخر شهر أغسطس ١٩٨١، كان لقائى الثانى والأخير بالرئيس محمد أنور السادات فى استراحته بالإسكندرية.

خلال هذه الأعوام الخمسة عشر كانت قد مرت بمصر والوطن العربى والعالم أحداث جسام، أهمها حربان مع إسرائيل، وصلح معها، ورحيل عبدالناصر وتولى السادات مقاليد السلطة، وحرب أهلية فى لبنان، ونشوب ثورة إسلامية فى إيران، ثم حرب بين العراق وإيران، وانقسام عربى غير مسبوق بسبب كامبد ديفيد، فـ«افتتاح اقتصادى» فى مصر، وقطيعة مع الاتحاد السوفيتى، وتقارب شديد مع الغرب والولايات المتحدة وانفجارات اجتماعية وطائفية داخلية فى مصر.

بل وكان صيف عام ١٩٨١ ـ الذى تم اللقاء قرب نهايته ـ صيفا ساخنا للغاية، ففى بداية ذلك الصيف وقعت أحداث طائفية قبيحة فى منطقة الزاوية الحمراء بالقاهرة، وشنت إسرائيل غارتين جويتين، أحداهما على المفاعل النووى العراقى قرب بغداد والثانية على حى الفكهانى المكتظ بالسكان فى مدينة بيروت.. ولأن هذا السلوك العدوانى الإسرائيلى جاء بعد يومين فقط من اجتماع الرئيس السادات ورئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيجين فى شرم الشيخ، فقد كان غضب الشارع المصرى خاصة والشارع العربى عامة غضبا شديدا.. وأوحى للمصريين وقتها بأن الرئيس السادات كان متواطئا مع مناحيم بيجين، أو أن إسرائيل غررت به وخدعته إمعانا فى إحراجه مع شعبه ومع أمته العربية. كذلك شهد نفس صيف ١٩٨١ زيارة للرئيس السادات إلى الولايات المتحدة حيث اجتمع لأول وآخر مرة مع رئيسها الجديد رونالد ريجان. كما شهد نفس الصيف مؤتمر قمة عربيا فى فاس، عرضت فيه خطة الأمير فهد

(وكان وقتها وليا للعهد فى السعودية) لتسوية صراع الشرق الأوسط.

أخبرت بموعد اللقاء قبله بيومين (يوم الخميس) ليكون ظهر السبت التالى، دون معلومات عن سبب اللقاء، أو موضوعه، أو مدة اللقاء..

وأخذا بالأحوط، وفى غياب هذه المعلومات حاولت أن أخمن ما يمكن أن يدور الحديث حوله.. واسترجعت الأحداث التى وقعت فى الشهور القليلة السابقة، والقضايا التى تشغل الرأى العام المصرى والعربى، والتى ذكرتها فى الفقرة السابقة. كما كنت قد نشرت مقالا فى صحيفة الأهرام فى ذلك الصيف فى أعقاب الغارة الإسرائيلية على المفاعل النووى العراقى، أتنبأ فيه باحتمال هجوم إسرائيلى كاسح على إحدى الجبهات العربية خلال عام، وأطالب بمصالحة عربية، استعدادا لهذا الاحتمال (وهو ما وقع فعلا فى يونيو ١٩٨٢ باجتياح إسرائيل للبنان).

وقضيت يومى الخميس والجمعة فى اعداد مذكرات مختصرة حول هذه الموضوعات، وحرصت على ألا تتجاوز أية مذكرة حول أى موضوع أكثر من صفحتين مكتوبتين. فقد شاع عن الرئيس السادات أنه لا يحب قراءة التقارير أو المذكرات المطولة.

كان الموعد المقرر للقاء مع الرئيس هو الثانية عشرة ظهر السبت، واستيقظت مبكرا صباح ذلك اليوم استعدادا للرحلة بالسيارة من القاهرة إلى الإسكندرية، وأثناء تناولى للإفطار قبيل الرحلة طالعت عناوين الصحف، ووقع نظرى على خبر فى الصفحة الأولى من الأهرام، مفاده أن الرئيس السادات معتكف فى استراحته بالإسكندرية، ولن يقابل أحدا، لأنه منكب على إعداد «خطاب تاريخى» سيلقيه على الأمة بعد ذلك بعدة أيام «٥ سبتمبر ١٩٨١».

وأصابتنى الحيرة والارتباك عما إذا كان هذا الاعتكاف وعدم مقابلة أحد، يعنى أن لقائى المنتظر بالرئيس قد ألغى.

واستشرت زوجتى فى الأمر، فاقترحت أن أسافر إلى الإسكندرية فى كل الأحوال، عملا بالتقاليد فى «البلاد الراقية» وهو أنه عندما يطلب رئيس الدولة رؤية أحد المواطنين، فإن واجب هذا المواطن أن يستجيب، حتى إذا قرر الرئيس أن يلغى المقابلة.. وأنه من المحتمل، رغم خبر الاعتكاف، أن يكون الرئيس يتوقع ذهابى إلى استراحته بالإسكندرية.. وفى هذه الحالة فإن عدم الذهاب ينطوى على سلوك غير لائق من مواطن تجاه رئيس بلده.

توكلت على الله وذهبت إلى الإسكندرية.. وأنا غير معول على اتمام المقابلة.. ولدهشتى الثانية صباح نفس اليوم وجدت عند بوابة الحراسة لاستراحة الرئيس اسمى، وما يفيد أن الرئيس سيرانى.

كانت هذه هى المرة الأولى التى أتوجه فيها إلى استراحة صيفية لرئيس دولة.. وكنت اتصور أن «الاستراحة». خلافا للقصر الرئاسى. هى بيت صيفى صغير.. وهالنى أن الاستراحة هى مبنى ضخم، وتحيط به حدائق شاسعة.. وعند باب هذا المبنى استقبلنى أحد المساعدين وأدخلنى إلى غرفة الاستقبال.. وبعد دقائق أقبلت حرم الرئيس، السيدة جيهان السادات، ورحبت بى ترحيبا حارا.. وبعد تبادل التحيات الاحتفالية. ذكرت أن الرئيس فى حاجة إلى من يتحدث إليه عن «أحوال البلد» بصراحة وموضوعية.. وأنها ترجو منى أن أفعل ذلك حرصا على مصلحة الوطن.. وغابت الابتسامة واكتسى وجهها بالجدية وهى تقول هذه الكلمات.. وكانت نبرات صوتها توحى بإخلاص عميق يختلط بهموم ثقيلة.. ثم توجهنا سويا، وبصحبة صديقة لها، إلى خارج المبنى.. وإلى حيث كان يجلس الرئيس السادات وحده تحت شمسية بلاج ضخمة قرب الشاطئ وينظر إلى أمواج المتوسط ومياهه شديدة الزرقة فى ذلك اليوم.

وما إن نبهته السيدة «جيهان» بأننى «موجود معهم» حتى التفت الرئيس وبادرنى بصاعقة كلامية عالية النبرات مفادها أنه يعرف «أننى أكرههم.. وأننى سليط اللسان.. وأننى أشوه صورتهم فى الداخل والخارج بما أقوله وأنشره..» ولم أكن وقتها مستعدا بالمرة لهذه القذائف الرئاسية.. فلقائى السابق بالرجل منذ خمسة عشر عاما كان ودودا، رغم الاختلاف فى الآراء.. كذلك كان ترحيب السيدة بى قبل خمس عشرة دقيقة رقيقا

وكريما للغاية.. وتدخلت السيدة جيهان بسرعة لتذكر الرئيس بأننى «ضيفهم.. وان الواجب أن يدعونى للجلوس أولا. أو على الأقل..».. فاستدرك الرئيس السادات، وهو لا يزال مقطب الجبين، وأشار إلىَّ بالجلوس.. وسادت لحظة وجوم، حاولت أن استجمع فيها رباطة الجأش، وأبطئ من دقات القلب المتسارعة، وغليان الدم الفاتر، واصطنعت ابتسامة قسرية، وقلت للرئيس بما يشبه الدعاية «أشكركم على هذا الاستقبال الكريم، رغم قراركم بالاعتكاف للتفكير فى جلائل الأمور..» فرد الرجل وعلى وجهه ابتسامة مغتصبة «ها.. وتهزل مع رئيس جمهوريتك أيضا!» .. ومع ذلك بادرت بالسؤال «هل لمواطن متواضع مثلى أن يستفسر عن حيثيات ما وجه له رئيس جمهوريته من اتهامات؟»..

قال الرئيس، وهو أكثر هدوءا «هذا ما أسمعه من أولادنا فى الجامعة الأمريكية.. وهذا ما سمعته عن الكلام الفارغ الذى تنشره تلك الصحف والمجلات فى الخارج».

ودخلت مع الرئيس فى حديث امتد حوالى ثلاث ساعات، تخللته عدة عواصف كلامية (من جانبه طبعا) مثل العاصفة التى استقبلنى بها ولكن مع ذلك كنت قد تعودت على استقبال العواصف الرئاسية.. وكان عزائى هو أن الرجل كان تواقا للاستماع والحديث، وأن السيدة جيهان كانت تتدخل بكلماتها الناعمة لتبديد التوتر بعد كل عاصفة.